

صورة الجزائري من خلال قانون
الأهالي 1871:
تكرار لتجربة رومانية فاشلة

- أ. محمد صلاح الهادي حقي
باحث بالجامعة التونسية

المقدمة

إن الحديث عن صورة الجزائر في الخطاب الكولونيالي – أي الفرنسي – لا تحجب عنا رؤية تكاد تكون شبيهة أ لا وهي الرؤية الرومانية فمُنذ سنة 46 ق.م إلى حدود 1962 م واجه الجزائري على مَرَّ القرون الاستعمار الخارجي وتعرض لثشتى أنواع الإهانات والاحتقار ولعل مصطلح Indigène أي الأهلي أو المحلي يعد خير دليل على نظرة الاحتقار التي كان يواجهها الجزائري منذ العهد الروماني إلى العهد الفرنسي وهو ما يعني أن هذا المصطلح ولئن كان وليد الحقبة الفرنسية إلا أنه ضمنا ومن حيث الممارسة يعود إلى الحقبة الرومانية.

وبناء عليه سأقسم مداخلتي إلى قسمين اثنين سيتناول الأول الرؤية الفرنسية بينما سيتطرق الثاني إلى الرؤية الرومانية مع مقارنة بين الرؤيتين وسأنتقل بالرؤية الفرنسية – رغم الأسبقية الزمنية لنظيرتها الرومانية – وذلك احتراما لموضوع الملتقى.

I – صورة الجزائري في الخطاب الفرنسي من خلال قانون الأهالي

1- التعريف بقانون الأهالي

صدر قانون الأهالي سنة 1871¹ أي إحدى وأربعين سنة بعد احتلال كافة التراب الجزائري وهو ما يعني أن الفرنسيين تريثوا قبل أن يصدروا هذا القانون ولعل في ذلك دراسة متأنية لواقع البلاد وردود الفعل وهذا القانون هو عبارة عن مجموعة إجراءات تعسفية مورست على الأهالي المحليين مبنية أساسا على الظلم والجور والقهر والحرمان لعل أهمها " القضاء على المؤسسات التقليدية كنظام الجماعة الذي يسير شؤون المواطنين بمقتضى العرف والتقاليد والقوانين الإسلامية"² والحد من حرية تحرك الجزائريين في وطنهم إلا برخصة يقدمها المستعمر إضافة إلى افتكاك الأراضي وتوزيعها على الجاليات الأوروبية التي وجدت تزامنا مع الوجود الفرنسي من مالطيين و إسبان وإيطاليين وكورسيك (نسبة إلى كورسيكا)³ كما فرض الاستعمار ضريبة مجحفة على الأهالي حتى " في شخص المرأة والقط والكانون والبرمة (القدر)"⁴ ويقوم هذا القانون على مبدأ تقسيم الأراضي المتبقية إلى ثلاثة أقسام :

¹ - ابن نادر (الطيب) ، الجزائر حضارة وتاريخ الحضارات المتعاقبة للجزائر وتاريخها المشرف ، دار الهدى للنشر ، عين مليلة ، الجزائر ، 2008 ، ص ص 98 – 99 .

² - ابن نادر (الطيب) ، الجزائر حضارة...، ص 98

³ - نفس السياسة انتهجها المستعمر ذاته في تونس منذ 1881 تاريخ الاحتلال

⁴ - ن م ، ص 98

- ثلث تستولي عليه الإدارة
- ثلث يستفيد منه العملاء كالقياد والقواد ودواير المصباحية
- الثلث الباقي من الأراضي غير الصالحة والمجود أغلبها قرب الجبال أو داخلها بور للأهالي.⁵

2- قانون الأهالي : أداة لإذلال الجزائري

قانون الأهالي هو قانون - كما تدل على ذلك التسمية- يتعلق بالجزائريين خدمة للأوروبيين الموجودين في الجزائر والذين جلبوا لاستغلال خيرات هذا البلد ومحاولة لطمس هوية هذا المجتمع العربي المسلم ، ولم يكن هذا القانون الذي أصدر في 1871 م اعتباريا بل كان وراءه هدفا واضحا المعالم وهو الحد قدر الإمكان من حرية الجزائري ومراقبته وتكبييل حركته حتى يفسح المجال "للرجل الأبيض"⁶ لمزيد استغلال ثروات هذا البلد فلا الإنسان ولا الحيوان حر في تحركاته بل كاد يكون الجماد مقيدا لو لم يكن كذلك طبيعيا ففرنسا سنت مثلا قانونا زراعيًا يهدف إلى تطوير الزراعات الصناعية الاستعمارية وسعت إلى تلقين الفلاحين الجزائريين طرق ووسائل الفلاحة الاستعمارية ولكن شريطة أن يكون المردود لصالح المستعمر كما يقول الدكتور صالح فركوس⁷ . أي استغلال أرض غير أرضه بأيادي غير أياديته . كان - إذن - الفلاح الجزائري يواجه وسائل مختلفة للتعسف والاضطهاد.

هكذا سن قانون الأهالي لإذلال مجتمع في وقت سيطرت فيه المجاعة وعم اليأس وصادف أن انتشر الجراد بشكل ملحوظ ومروع في الجزائر في تلك الفترة مما زاد الوضع تعقيدا وانتشرت الأوبئة الفتاكة في المقابل يسعى الاستعمار إلى تقوية وجود المستوطنين الأوروبيين ولعل ما عبر عنه عمار بوحوش ببرنامج المستوطنين خير دليل على ذلك وخاصة النقطة الثانية منه والتي تحدث فيها عن الخطة التي اعتمدها المستوطنون للاستيلاء على الجزائر بمباركة الدولة الفرنسية طبعًا فهذه النقطة تؤكد على القمع ومصادرة أراضي الجزائريين خاصة بعد الثورات العارمة في سنتي 1870 و 1871 م وهو ما جازاهم فيه أول رئيس للجمهورية الثالثة الذي قال : " يمكن للعرب - المقصود الجزائريين - أن يقوموا بثورات لكن سيتم احتوائهم أو ابتلاعهم "⁸ . وفي سنة 1871 م استولى المستوطنون على 500.000 هكتار بعد أن صادرتها الدولة على أنها أملاك عامة حسب تعبير الحاكم العام De Geydon بفرض غرامات مالية على 298 بلدية قام ساكنوها بثورات ضد فرنسا قدرت بـ 36.282.298 فرنك كما صادرت السلطات أراضي 313 بلدية قدرت مساحتها بـ 2.639.600 هكتار. هذا الوضع لم يكن في الحقيقة وليد الفترة الفرنسية بل يجد له جذورا في الحقبة الاستعمارية الرومانية

⁵ - ن م ، ص 99.

⁶ - عبارة استعملتها الإمبراطوريات الاستعمارية في القرن التاسع عشر لتبرير احتلالها لشعوب إفريقيا وآسيا وكان أبرز المتحمسين لهذا المصطلح جول فيري

⁷ - بوحوش (عمار) ، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ونغاية 1962 ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، 1997 ، ص 159

⁸ - ن م ، ص 159

- فما هي مظاهر ذلك ؟.

II- الجزائر في العهد الروماني : وضع شبيه بالعهد الاستعماري الفرنسي

1- التحاق الجزائر بالإمبراطورية الرومانية

اشتهر الرومان بقدرتهم الفائقة على خوض الحروب والتنظيم السياسي وإتقانهم للزراعة وكانوا لا ينزعون إلى التجارة والمهن علاوة على ذلك فإن الأراضي الرومانية في أوروبا لم تكن غنية بالثروات مثل نظيرتها في آسيا وإفريقيا لذلك كان الهدف من التوسع الروماني هو احتلال الأراضي واستغلال خيراتها وثروات المناطق المحتلة على غرار ما حصل مع الجزائر.

وسوف لن نطيل الحديث عن كيفية احتلال هذا البلد من قبل الرومان لأنه أتت عليه عديد الكتابات وأطنبت في شرحه وحسبنا الإشارة إلى بعض الأحداث فحسب فيعد أن دمرت روما قرطاج وتأسست ما يسمى بإفريقيا الرومانية انطلقت الإمبراطورية المنتصرة⁹ في التوسع في اتجاه نوميديا ولو ببعض الصعوبات إذ بعد واقعة طيبسوس سنة 46 ق . م أمكن للرومان احتلال شرقي نوميديا وأطلقوا عليها اسم إفريقيا الجديدة أو نوميديا الحديثة¹⁰ ومنحت نوميديا الوسطى¹¹ لستيسوس وحملت اسمه (مستعمرة ستيسوس) أما نوميديا الغربية¹² فقد ظلت بيد عرابيون وهو من البربر الذين قاوموا الرومنة وتؤكد الكتابات أن روما ضمتها إلى مستعمراتها بعد قتله ثم ألحقت موريتانيا في سنة 42 م بروما نهائيا فتم بذلك الاستيلاء على كافة المجال الجزائري بعد حوالي ثمانية وثمانين سنة (أي من 46 ق م إلى 42 م) ولكن سيطرتها ظلت على السواحل فيما بقيت المدن الصحراوية والداخلية بمنأى عن السيطرة الرومانية مثل قرطبة ، ميلوم ، روسقاد ، شولو ، قويلوم والتي لم تلتحق نهائيا إلا في أواخر القرن الثالث أي منذ 297 م وتؤكد بعض الكتابات أن الرومان لم يستولوا حقيقيا على كافة المجال الجزائري رغم طول فترة وجودهم هناك¹³ .

⁹ - المقصود روما

¹⁰ - الميلبي (مبارك بن محمد) ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، تقديم محمد الميلبي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1396 هـ / 1976 م ص 254.

¹¹ - قرطبة والمدن التابعة لها

¹² - قسم سطيف

¹³ - أنظر الميلبي (مبارك بن محمد) ، تاريخ الجزائر... مر س ، ص 256.

خريطة نوميديا



ومهما يكن من أمر استيلاء روما على الجزائر أم بقاء أجزاء خارج السيطرة فإن الاستعمار الروماني حصل في الجزائر وهنا أؤكد على استعمال مصطلح استعمار لأن المعنى واحد حتى وإن لم يتم استعماله في العصور القديمة فقد استعملت مرادفات له أي "مستعمرات"، "إلحاق" و "سيطرة" ... وتصب كلها في معنى الاستعمار ليتأكد لنا أن عبارة "كولونيالي" لا تعود إلى الحقبة الفرنسية وإنما إلى ما قبل ذلك أي الفترة الرومانية أي إلى القرن الثالث ميلادي وهو ما تتدل عليه ممارسات روما تجاه النوميديين أي الجزائريين.

- فكيف كانت هذه الممارسات ؟

- وهل أن فرنسا استلهمت سياستها من السياسة الرومانية ؟

2- سياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر : ممارسات مستلهمة من الفترة الرومانية

"لما سيطر الرومان على المجال النوميدي انتزعوا من البربر جل أراضيهم وأنقلوا كاهلهم بالضرائب وأدخلوهم في الجندية ولم يحفلوا بحقوقهم الطبيعية" وردت هذه

المقولة في كتاب الميلّي " تاريخ الجزائر في القديم والحديث " ¹⁴ وقد وردت عبارة " لم يحفلوا بحقوقهم الطبيعية " ألا نجد لقانون الأهالي الفرنسي لسنة 1871م أثرا في تصرفات الرومان ؟ .

في هذا الإطار يقول بيروني : " والمالك الأهلي إنما هو عامل مجبور على العمل طبعا لا قانونا... " ¹⁵ كما أشار الميلّي إلى أن المكتري الروماني كان أسعد من المالك البربري ويقول غروت في هذا الإطار : " إن الرومان ألزموا البربر بالعمل في أراضي المعمرين تحت قوانين ثقيلة... " ¹⁶ .

وقد أعتبر البربر أداة لسعادة الرومان حيث يُستغلون في أرضهم الخصبة وفي أبدانهم القوية وقد دأب الرومان على الاستيلاء على الأراضي الخصبة التي يملكها البربر كما مورست أنواع عديدة من الضرائب على الأهالي (البربر) مثل الضريبة على الأفراد وأخرى على العقارات وثالثة على المبادلات التجارية وأخرى لتغطية تكاليف رجال الأمن وطبعا الأمن المقصود هنا هو أمن الرومان ليس أمن البربر وعموما كان الرومان يتمتعون بالحقوق السياسية وامتلاك الأرض أما سكان شمال إفريقيا فلم تكن لهم حقوقا وإنما كانت عليهم واجبات تتمثل في خدمة الرومان.

عندما نتمتع في ممارسات الرومان تجاه السكان الأصليين نلاحظ أنهم كانوا يعتبرون البربر مواطنين من الدرجة الثانية تمارس عليهم أنواع الضرائب والاحتقار والامتهان وهو ما نجده في السياسة الفرنسية تجاه الجزائريين في القرن التاسع عشر خاصة مع قانون الأهالي 1871 مما يجعلنا نستخلص فنقول : إن فرنسا لم تأت بجديد في قانون الأهالي وإنما درست التاريخ جيدا وخاصة القديم منه والمتعلق بالسيطرة الرومانية على شمال إفريقيا لتتبني نفس السياسة وتكرر ما أتى به الرومان من قوانين ولكن كما أدت الممارسات الرومانية إلى اندلاع الثورات فإن قانون الأهالي الفرنسي أدى هو الآخر إلى اندلاع ثورات وهو ما يعني بمنطق الرياضيات أن نفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج يعني أن فرنسا كررت التجربة الرومانية رغم فشلها مما يؤكد أن الفرنسيين لم يدرسوا تاريخ هذه الحقبة بتمحيص إذ كان عليهم أن يعتبروا من الممارسات الرومانية ومن التاريخ وذلك بانتهاج سياسة لينة تجاه الجزائريين وأن لايسنوا مثل هذا القانون أصلا.

¹⁴ - الميلّي (مبارك بن محمد) ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، تقديم محمد الميلّي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1396 هـ / 1976 م ص 278.

¹⁵ - نفس المرجع ، ص 278

¹⁶ - ن م ، ص 278 راجع أيضا خوجة (حمدان بن عثمان) ، المرأة ، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيدي ، الطبعة الثانية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982 ، ص ص 80 - 81.

الخاتمة

كررت فرنسا إذن ما أتاه الرومان في نوميديا وشمال إفريقيا عموما وسقطت في نفس الخطأ وتناست أنها سيطرت على أرض يرفض سكانها الامتھان والمذلة ولعل الأمير عبد القادر يبقی رمزا لرفض الاستعمار كما بقي تاكفاریناس رمزا لرفض البربر للوجود الأجنبي على أرضهم .